

الفينيقيون واسهاماتهم الحضارية

للدكتور حسن عبد العزيز أحمد
أستاذ مساعد - قسم الجغرافيا - جامعة الرياض

من هم الفينيقيون ؟
لم تكن معلوماتنا عن هذا الشعب العظيم ، قبل الاكتشافات الأثرية التي أميط
عنها اللثام في منتصف القرن التاسع عشر الميلادي ، سوى أخبار نعرف أغلبها من
كتابات أقوام آخرين مثل الإغريق والرومان وغيرهم من الشعوب الأخرى التي كانت
في علاقات وصلات مع الفينيقيين .
وما كان معظم إنتاج الفينيقيين الأدبي قد اندثر ولم يبق إلا القليل القليل من
المستغرب إذن أن تشوه صورة الفينيقيين إلى حد كبير في المصادر اليونانية وغيرها
وعلى سبيل المثال يصف المؤرخ اليوناني ، بلوتارخ «Plutarch» ، الفينيقيين
بالاستبداد واخلاق . وفي القرن الثاني الميلادي لعنهم «Appian» ،
اليوناني بأنهم قوم قساة جفاة في حالة قوتهم ، وإذا ما اتاهم الضعف لهم أذلاء
وبنصفهم باخلون^(١) . ومن بين الذين كتبوا عن الفينيقيين نجد بعض المصنفين مثل
«Pomponius» ، الذي وصف الفينيقيين في القرن
الأول الميلادي فقال :

« ان الفينيقيين سلالة ذكية ، متفوقون في الحرب والسلم . وبارعون في الكتابة والأدب والفنون الأخرى والملاحة والمعارك الحربية وفي ادارة امبراطوريتهم » .^(٢١)
 وحتى الآن لم نعر على وثائق فينيقية مكتوبة توضح لنا علاقات الفينيقيين بالشعوب الأخرى مثل المصريين والآشوريين . أو أن تبين لنا أساليب الفينيقيين التجارية مع جيرانهم ورحلاتهم البحرية والمناطق التي وصلوا اليها ومنجزاتهم الفنية والصناعية .
 وهكذا ينبغي علينا كباحثين أن نتعامل مع ما نرفقه عن الفينيقيين في المصادر المختلفة بشيء من الحذر .

لقد عاش الفينيقيون على الشريط الساحلي الشرقي للبحر الأبيض المتوسط والذي يمتد من طرطوس شمالا حتى جبل الكرمل جنوبا . وهذه المنطقة أهمية جغرافية كبرى حيث تقع بين مهدين من مهد الحضارات القديمة . فالجنوب تقع مصر والى الشرق تقع بلاد ما بين النهرين . وشغلت الرقعة التي عاش فيها الفينيقيون أجزاء من اهلل الخصيب وفلسطين وسوريا ولبنان . وتأثرت نتيجة هذا الموقع بالمؤثرات الثقافية من مصر وبلاد بابل .
 ولقد أطلق الانجيل اسم الكنعانيين على السكان الذين كانوا يقطعون هذه الرقعة الساحلية التي شغلها « فينيقيا » . وتاريخ وصول الفينيقيين الى تلك المنطقة غير معروف على وجه التحديد . ولكن الامر المؤكد ان هناك هجرات سامية من شبه الجزيرة العربية ومن منطقة الخليج العربي بالتحديد^(٢٢) قد توالى صوب ساحل البحر الابيض المتوسط . وقد تمت الهجرة السامية الأولى في سنة ٢٣٥٠ ق.م تقريبا أي منذ أكثر من ثلاثة وأربعين قرنا . وقد أنهت هذه الهجرة صوب الشمال الى العراق وأست دولة الأكاديين جنوبى العراق . أما الهجرة الرئيسية الثانية فتتمثل فى تدفق العموريين فى نهاية الألف الثالثة قبل الميلاد . وفى نهاية العصر البرونزى اندفع الآراميون صوب بلاد الشام فيها يوصف بالهجرة السامية الرئيسية

الثالثة . ومن المؤكد ان هناك هجرات سامية اخرى حدثت قبل هجرتين الساميتين الاخيرتين كما تؤكد الأدلة الأثرية .

وتشير رسائل تل العمارنة انه فى مسهل القرن الرابع عشر قبل الميلاد أطلق سكان كنعان على أنفسهم الاسم الأكادى « كياهو Kinahu أو كيناهو Kinahu أو كيناهنا Kinahna » .^(٢٣) ونعنى كلمة « كنعان » فى اللغة العبرية « الناجر » وتنطبق هذه الصفة تماما على الفينيقيين .^(٢٤)

وفى حديثنا عن الفينيقيين نتساءل من أين جاءت هذه التسمية التى اشتهر بها هذا الشعب الكنعانى حتى طغت على اسمه الأصل ؟

نوجز الآراء التى قبلت بصدد تفسير هذه التسمية على النحو التالى :
 ١ - هناك رأى يرى ان الاغريق الذين كانت لهم صلة بالفينيقيين فى أواخر الألف الثانية قبل الميلاد هم الذين أطلقوا هذه التسمية . ويرد ذكر Phoenix « فى أشعار هوميروس . ويبدو ان هذا الاسم يدل على اللون الأحمر الغامق أو البنى . ثم انتقلت التسمية الى شجرة النخيل Phoenix daetilfeva التى تسميز بهاها الحمراء . وقد أطلق

الاعريق هذه التسمية على الكنعانيين لانهم بشر ذوو بشرة بيضاء .^(١٧)

٢ — يعتقد بعض الباحثين ان اسم الفينيقيين قد اشتق من صبغة حمراء أو أرجوانية تستخلص من محار أو أسماك بحرية هي Murex Whelk والتي كانت تستخدم في صبغ الأقمشة الجميلة التي اشتهر الفينيقيون بصنعها .^(١٨)

٣ — استخدم الرومان تسمية « بوني Poeni » للدلالة على القرطاجيين وهذه التسمية اشتقاق لائبي من الاسم الاغريقي الاصل Phoenix . وقد كان الرومان يفرقون بين « اليونيين » الغربيين و « الفينيقيين » الشرقيين رغم اعترافهم بوحدة أصلهما .

٤ — ويرى عبد الحق فاضل ان اسم قنقيا مشتق من اسم الفينيقيين . وأن اسم الفينيقيين محور من « بني كنعان » وبعلل ذلك بأن اللاتين كانوا يسمون الفينيقيين والقرطاجيين Punicus كما تشهد بذلك المعاجم والمأثورات وأن القرطاجيين كانوا يسمون أنفسهم « بني كنعان » كما نصح بذلك رخامه^(١٩) عثر عليها في البرازيل . ومكتوب عليها باللغة القرطاجية عام ١٢٥ ق.م ما ترجمته بالعربية :

« هنا نحن بني كنعان من قرايم حملنا الحفارة . أليس حراماً أن نحصل هكذا » .
وقد أخذ اللاتين عن الاغريق صيغة التسمية Phoenices بالفاء . ثم نتيجة الاحتكاك المباشر بالفينيقيين — بني كنعان — وجدوا أن الأصوب أن تنطق بالياء لا الفاء فقالوا

Punicus' Poenicus' Poeniceus'

Poeni و

كيف كون الفينيقيون دولتهم ؟

تتميز سهول ساحل البحر الأبيض المتوسط الشرقي . حيث أقام الفينيقيون دولتهم . بكثرة الكتل الجبلية المرفقة والتي تعوق استمرار الاتصال بين أجزائها . وقد أدى ذلك الى قيام مجموعة من المدن كانت كل مدينة منها دولة قائمة بذاتها . وبطبيعة الحال كانت هذه الدول المدينة صغيرة وضعيفة عسكريا وغير مستقرة سياسيا . وبحلول الزمن استطاعت بعض المدن القوية أن تفرض سيطرتها على المدن الأقل قوة حتى انتهى الأمر بانحادها .
ولما كانت فينقيا تواجه البحر من الغرب وتواجه جبالا عالية من الشرق . فقد اتجه

سكانها نحو البحر يعيشون على أسماكهم في بداية الامر ثم اتخذوه سبيلا للتجارة مع الأقطار المطلة عليه حتى برعوا في هذا المجال وساعدتهم على ذلك أمور نذكر بعضها منها : ألقيهم للبحر الذي عاشوا على شواطئه . ووفرة أخشاب الأرز على الجبال المجاورة لهم مما مكّهم من استخدامها في صناعة السفن . وكان لصفاء السماء أثر كبير في استعانة الفينيقيين بالنجم القطبي في أسفارهم .

وقد سعت المدن الفينيقية الى استغلال موارد بيثها اعبطه بها ، واختلفت عما يسود في مجتمعات الدول المجاورة في انها (أى المدن الفينيقية) كانت مجتمعات حضرية اقتصاديا وسياسيا . وكانت جبلا Gubla (جبال الأنجيل وجبيل الحديثة) أول مدينة تظهر في فينيقيا . وقد عرفت جبلا عند الإغريق باسم بيبلوس Byblos الذى اشتقت منه كلمة Bible ، وتعنى كتابا ، وذلك لأن مدينة بيبلوس كانت مركزا لأوراق البردى التى شاع استخدامها آنذاك فى الكتابة .^(١٩) وجدير بالذكر ان تشير الى أن مدينة بيبلوس هى المدينة الوحيدة التى لقيت اهتماما من علماء الآثار وحظيت بعدد من عمليات التنقيب . وقد ظهرت بعد بيبلوس مدن فينيقية أخرى مثل ارادوس (ارواد الحالية) ثم تلها صور وصيدا .

علاقات الفينيقيين بجيرانهم :

تؤكد الأدلة الأثرية التى عثر عليها وجود علاقات تجارية بين الفينيقيين وجيرانهم . فقد ثبت اتصال (جبلا) بمصر القديمة قبل ان يتوحد الوجهان القبلى والبحرى في مملكة واحدة . حيث كان الملوك المحليون يرسلون بعثاتهم الى لبنان للحصول على خشب الأرز والتوب الذى استخدم فى بناء السفن والمعابد والقصور ، وقد وجدت أقدم بقايا شجر الأرز فى هرم بناءه سنفرى منذ أكثر من ٤٥٧٠ سنة (أى حوالى سنة ٢٦٠٠ ق.م) . وقد تم العثور كذلك على بعض الأواني الفخارية الكنعانية فى قبور ترجع لنفس هذه الفترة .^(٢٠) وفى مقابل الاخشاب والفخار كان الكنعانيون او الفينيقيون يستوردون من مصر الذهب والبردى وبعض الادوات المعدنية . واستمرت العلاقات التجارية بين مصر وساحل الشام وازدهرت برا وبحرا بعد ان أصبحت مصر امبراطورية ، وصارت بيبلوس وصور وصيدا أسواقا هامة ليس فقط لمصر بل وللدول الجزيرة العربية عبر طريق البخور ، وارتبطت هذه المدن كذلك بمراكز التجارة والصناعة فى منطقة الهلال الخصيب .

ومعروف ان العلاقة التجارية والثقافية بين دول غير متكافئة فى قوتها تؤدى فى النهاية الى سيطرة الدول القوية وبسط نفوذها على الدول الضعيفة وهذا ما حدث بالفعل إذ أن المدن الفينيقية خضعت للنفوذ المصرى . وحينما اجتاحت اخكسوس مصر السفلى سيطروا كذلك على فينيقيا لكن ذلك لم يدم طويلا إذ أن المصريين طردوا الهكسوس واستعادوا فينيقيا التى أصبحت جزءا من امبراطوريتهم .

ويرد فى قوائم غنائم نخنم الثالث الذى استولى عليها من بلاد الشام . الاطباق والأواني . والمضى الذهبية . والموائد المظعمة بالعاج والأبنوس والذهب . مما يدل على دلالة واضحة على مستوى المعيشة المرتفع الذى كان يتمتع به الفينيقيون .

وفى بداية القرن الرابع عشر ق.م . سيطر الحيثيون والعموريون على فينيقيا ولم يستطع اخاتون فرعون مصر آنذاك من الوقوف فى وجه الحيثيين أو صد هجماتهم لانشغاله بدبنة الجديده الذى وحد الافة . وحينما ولى رمسيس الثانى حكم مصر اعاد نفوذها وسيادتها على

فينيقيا ولم يستمر طويلا لأن قوة مصر أخذت في الضعف وتقلص نفوذها تدريجيا مما أتاح للمدن الفينيقية في استعادة استقلالها. ^(١١)

استقلال فينيقيا وتوسعها الاقليمي : (انظر الخريطة رقم ١)

بعد أن أصبح نفوذ المصريين والحبشيين نعمت المدن ونفوذ ثلاثة قرون (من ١٢٠٠ ق.م. — ٩٠٠ ق.م.) بفترة عمها السلم والازدهار والرخاء الاقتصادي. ولقد ساعد على استقرار المدن الحبشية أنها احتارت ملوكا يحكمون في اطار ما يعرف بالحق الاثني ثا أكسيم هبة دينية ونفوذ سياسي. ولم تكن سلطة هؤلاء الملوك مغلقة بل عرفت هذه المدن مجالس لكبار الشخصيات تقدم فيها السفن والشجار وعمداه المثلثات الارستقراطية. وكان هذه المجالس آراء يصنع اليها ملوك.

وقد تم في بعض الفترات ظهور مثلثات اختيارية بين بعض المدن انبثقت من واقع المصالح الذاتية. ومما هو جدير بالذكر أن التنافس التجاري بين المدن والولاء للملك والتفاني في مراعاة المصالح الخلية لكل مدينة كانت من الامور التي تحول دون ظهور وحدة حبشية كاملة بين هذه المدن الحبشية. وقد تصافرت مجموعة من الظروف الطبيعية مع العوامل البشرية السابقة في بقاء هذه المدن دون ما وحدة جامعة تربط بينها. ومن هذه العوامل كثرة الاتجار التي تفصل بين اجزاء حبشيتها المختلفة. والكتل الخلية التي تعوق الاتصال. ووجود بعض المدن التي اتخذت من اجزاء القرية من الساحل مقرا رئيسيا لها. وعلى الرغم من الظروف السابقة فقد استطاعت بعض المدن من قرض الاتحاد فبدلوا جميع بين بقية المدن مثل.

١ — مدينة اوغريت Ugari (راس شر الحانية) في اواخر السادس عشر ق.م.

٢ — مدينة اردوس وجيلا في القرن الرابع عشر ق.م.

٣ — مدينة صيد في القرن الثالث عشر ق.م.

٤ — مدينة صور في القرن الحادي عشر ق.م.

ومن أشهر ملوك صور انت حرم الاول Hiram I (حوالي القرن العاشر ق.م.) وكان صديقا بحليفا للملك سليمان وهو الذي مد سليمان بالعمير بين وعمل البناء الذين اقموا معده في مدينة القدس وشيدوا بخرينه او اسطوله Naby على خليج عفة في تل الخليلي^(١٩).

وقد كان الاشوريون يتسلطون الى السيطرة على حبشيتها منذ اوائل القرن الحادي عشر ق.م. ولكن غرهم اخفي في اتم الا بعد قرنين من هذا التاريخ حينما تمكن « آشور ناصر بال الثاني » (٨٨٣ — ٨٩٠ ق.م.) وابنه « شلمنصر الثالث » (٨٥٨ — ٨٢٤ ق.م.) من السيطرة على سوريا. وكان حصون الحبشيين للعرافة احدد خضوعا امبيا تحسد في دفع حرية هم. وظل هذا الخضوع الاسمي حيا والكام في احيان أخرى حتى جاك شلمنصر الخامس الذي فرض صرايب باهظة على اردوس وبيبلوس وصور. ثم حصت صور « تساعرب » عام ٧٠١ ق.م. وجاء ابنه « اسارهدون » الذي دمر مدينة صور تماما في عام ٦٢٥ ق.م. وتلا ذلك اكساح « آشور بانيال » المدينة عام ٦٢٤ ق.م. وهكذا ضاعت آمال الحبشيين في حكم بلادهم وتبددت احلامهم امام هجمات هذا الجيش القوي. وحينما سقطت نينوى على يد البابليين عام ٦١٢ ق.م. انهارت دولة الاشوريين وظهرت

قوة البابليين الذين رأوا أنهم ورثة الآشوريين في الساحل الفينيقي . فشنوا هجوما على هذه المنطقة بقيادة « نبوخذ نصر الثاني » واحتلوا بيت المقدس . لكن مدينة صور قاومت باستسبال لمدة ثلاثة عشر عاما قبل ان تخضع نهائيا للبابليين عام ٥٣٣ ق.م. الذين تمكنوا من بسط نفوذهم على تلك المنطقة . لكن سيطرة البابليين لم تدم طويلا حيث تمكن الفرس من الاستيلاء على ممتلكات البابليين في سوريا وفينيقيا التي قسموها الى ولايات وجعلوا عاصمتها صيدا . وقد استفادت فينيقيا ماديا من هذا الوضع الجديد حيث اتسع مجال تجارتها . وعندما اندلعت الحرب بين الفرس واليونانيين وقف الفينيقيون بانخلاص الى جانب الفرس وعاونوهم وزودوهم بسفن من أساطيلهم . وبسبب صلف حكام الولايات من الفرس وارهاق الفينيقيين بالضرائب وبدأت حركات الفرار وقادت مدينة طرابلس اول انتفاضة ضد ظلم الحكم الفارسي وتبعها بقية المدن . ولكن هذه الانتفاضة لم تدم طويلا اذ استطاع الفرس تدمير صور وصيدا عام ٣٥٠ ق.م. تقريبا . ثم جاء الاسكندر المقدوني ليضع نهاية للحكم الفارسي الذي دام قرنين من الزمن .

ولقد رحبت المدن الفينيقية (ارادوس وبيروت وصور) بالحكم اليوناني الا مدينة صيدا التي أثبت أن تخضع للمستعمر كعادتها وصمدت على مقاومتها . ولكن ذلك انوقف لم يرض الاسكندر فحسم ان يجعل منها عيرة ومثالا لسائر المدن فحاصرها لمدة سبعة أشهر حتى استسلمت . وكان ثمن صودها حيث أباد الاسكندر ثمانية آلاف من سكانها وباع ثلاثين ألفا منهم كآرقاء .^(١٢)

وبعد وفاة الاسكندر الاكبر أصبحت فينيقيا جزءا من المملكة السورية تحت حكم سلوقس Seleucid . وفي عام ٦٤ ق.م. حل الحكم الروماني محل الحكم السلوقي وفقدت المدن الفينيقية استقلالها وشخصيتها وذابت في كيان الامبراطورية الرومانية .

أهم اسهامات الفينيقيين الحضارية :

تتمثل أهم الاسهامات الحضارية الفينيقية في المجالات الآتية :

- ١ — ابتكار الحروف الابجدية .
- ٢ — التفوق الملاحي والكشوف الجغرافية .
- ٣ — انشاء المستوطنات والموانئ الساحلية .
- ٤ — المهارة التجارية .
- ٥ — النبوغ في مجال صناعات عديدة .
- ٦ — التفوق في مجالات حضارية أخرى .

أولا : ابتكار الحروف الابجدية :

وترد في الانجيل اشارات عن تجارة الفينيقيين الاولى . وذلك في المعاملات التجارية بين « حرام العظيم » ملك « صور » وبين « داود » و « سليمان » والتي كانت تتكون من شحنات من اشجار الارز مصحوبة بتجارين وبنائين لبناء منزل « لداود » وكذلك « لسليمان » الذي كان يعطى « حرام » مقابل ذلك ألف معيار من الفصح وعشرين معيارا من الزيت كل سنة . ثم قام « حرام » بمساعدة « سليمان » بالاهتمام بشؤون تجارة البحر الاحمر . وذلك بتسويله بالسفن والربابنة الذين ابحروا الى اوفير Ophir (في الهند ؟) وجلبوا منها الذهب .^(٢٢)

وترد اشارات عن شهرة الفينيقيين التجارية في المصادر الاغريقية ابتداء من الاليلادة والادويسا فثالا . ويبدو ان حركة النقل التجاري بين فينقيا وبلاد اليونان قد تقلصت تماما اثر ازدهار التجارة الاغريقية في القرن الثامن ق.م . مما أدى الى تناحر بين الدولتين المستعمرتين بلغ أوجه عام ٤٨٠ ق.م . بهزيمة « قرطاجة » على يد الاغريق . وقد لقي الفينيقيون المنافسة الاغريقية أيضا في اسبانيا ولكنهم استطاعوا استعادة نفوذهم بطرد الاغريق من الساحل الجنوبي الشرقي لشبه الجزيرة .^(٢٣)

وبالإضافة الى تجارة الفينيقيين في المواد الحثام مثل الأخشاب من لبنان والمعادن من الغرب والصبغة الأرجوانية التي اشتروا بها . فانهم كانوا يتاجرون أيضا بالبضائع المصنعة مثل الأقمشة والمتحجات الزراعية والأدوات المعدنية بجانب دورهم كوسطاء في بعض الأحيان في نقل البضائع الاغريقية والمصرية . وتشير الى ذلك اختلافات التي عثر عليها في « قرطاجة » من الامانم والقلائد المصنوعة في مصر والنسي وجدت بكيات كبيرة وتنسب زمنا لفترة حكم الاسرة السادسة والعشرين . ويبدو ان البضائع المصنوعة في مصر قد اخذت نقل بعد نهاية القرن السادس ق.م . واخذت تحمل محلها منتجات المصانع الفينيقية في الغرب أو « قرطاجة » نفسها .^(٢٤)

ومن المحتمل ان الفينيقيين والاغريق كانوا يتاجرون مع ايطاليا . لأن وجود بعض البضائع الفينيقية مثل الزجاج والقلائد . والمصنوعات العاجية الخ .. تدل على وجود صلة بين هؤلاء وبين المستعمرات الاغريقية في ايطاليا . ولأنه من المستبعد أن تكون هذه البضائع قد وصلت على متن السفن الاغريقية او حملها الاترسكيون الذين لم تكن لهم صلات تجارية مع مدن الساحل الشرقي للبحر الابيض المتوسط . فيمكن الافتراض بأن الفينيقيين أنفسهم هم الذين أتوا الى هناك . ومعروف أيضا من نص المعاهدة التي وقعت بين « قرطاجة » و « روما » عام ٥٠٩ ق.م . ان الاولى كانت لها مصالح تجارية في أواسط ايطاليا . وتوجب هذه المعاهدة التي حددت مناطق النفوذ السياسي والتجاري بينهما ، وافقت « قرطاجة » على عدم الخاق الضرر بمدن رومانية معينة وعدم إقامة قلعة في لاتيوم Latium^(٢٥)

وكان للفينيقيين صلات تجارية مع دول أخرى .. مثل « اوفير Ophir » (التي لم يحدد موقعها بالضبط .. ويرجح انها في الهند) وفي افريقيا عن طريق البحر الاحمر . اما فينقيو « قرطاجة » فقد أنشأوا صلات تجارية عن طريق البر والبحر مع المناطق الواقعة جنوب



الوصول إلى الأراضي الزراعية الغنية في سوريا . وكانت الغابات التي تغطي هذه الجبال مصدرا لأخشاب الأرز والتوب التي اعتمدت عليها صناعة السفن . ومعروف أن الساحل الفينيقي تكثر به التعاريج مما أتاح قيام الموانئ الجيدة كما كان ضيق الأراضي الزراعية دافعا لهم للانتباه نحو الصناعة والبحر .

لكل هذه الأسباب ألف الفينيقيون ركوب البحر وقاموا برحلات عديدة واستكشافات مثيرة .

وقد أبحر الفينيقيون في البحر الأبيض المتوسط ولكننا لا نستطيع أن نطلق على هذه الرحلات بأنها استكشاف وذلك لأن طرق الملاحة الرئيسية في هذا البحر كانت معروفة ومطروقة منذ العصر البرونزي أن لم تكن قبل ذلك . ولكي نغف على إسهام الفينيقيين في الكشف الجغرافي يجب أن ننظر إلى ما وراء هذا البحر . ومن حسن الحظ أن هناك إشارات وردت في بعض قصص الكتاب القدماء تساعدنا في التعرف على متجزاتهم في هذا المقام ^(١٦) وهي ثلاث رحلات قاموا بها والمؤرخ هيرودوت مثلا يصف لنا كيف استطاعت

فئة من الفينيقيين بإيعاز من فرعون ومصر نحو الثاني (٦٠٩ - ٥٩٣ ق.م) الإبحار عن طريق البحر الأحمر لندور حول أفريقيا في رحلة استغرقت ثلاثة أعوام كانوا خلالها يتوقفون كل عام لزراعة المحاصيل وحصدوها للحصول على المؤن الغذائية ثم يعاودون السير ^(١٧) . وهذه القصة لقيت قبولا عموما من المؤلفين القدماء وذلك استنادا على الكلام الذي ورد على لسان الرحالة أنفسهم بأنهم عندما كانوا يسبحون حول ليبيا (أفريقيا) كان موضع الشمس على يمينهم ^(١٨) .

أما الرحلتان الأخريان هما : رحلة « هانو Hanno » الذي ذهب حتى غرب أفريقيا ثم رحلة هيميلكو Himilco الذي أبحر شمالا حول شبه جزيرة أيبيريا . ولأن أخبار هاتين الرحلتين لم يرد ذكرهما في كتابات « هيرودوت » الذي كتب عن الرحلة حول أفريقيا المشار إليها آنفا . فمن المرجح أن الرحلتين لم تحدثا حينذاك بل حدثتا حوالي عام ٤٢٥ ق.م أو في وقت لاحق بقليل . ومعرفنا برحلة « هانو » أكثر من معرفتنا برحلة « هيميلكو » لأن وصف هانو القصير عن رحلته قد حفظ لنا في ترجمته الإغريقية . في حين أن رحلة « هيميلكو » لا نعرف عن تفاصيلها إلا ما تضمنه كتاب « Ora Maritima » للكاتب الجغرافي الروماني « أفينوس Avienus » الذي كتب في القرن الرابع ق.م. ويرد ذكر الرحلتين أيضا عند « بليني الأكبر Pliny » الذي أبدى شكوكه في صدق رحلة هانو . وقد يوشرت الرحلتان عندما كانت قرطاجة تحاول حادثة تقوية وتدعيم مصالحها في الغرب خاصة بعد النكسة الإغريقية التي عانت تقدمها في بسط نفوذها على الأماكن القريبة منها . وربما كان الغرض من رحلة « هيميلكو » هو فتح « طريق القصدير » العربي لأن الكميات المستخرجة من مناجم إسبانيا لم تعد تكفي لسد احتياجات الدولة . ولعدم وجود مصادر أخرى عن هذه الرحلة غير اقتباس « أفينوس » لقصة عمرها ثمانية سنة فالتا لا نستطيع تحديد الأماكن التي وصل إليها « هيميلكو » في رحلته هذه على وجه الدقة ولا أين انتهت . ولكن:

من بعض أسماء الأماكن التي وردت في الكتاب نستطيع ان نستخلص بأن « هيسلوكو »
 واصل رحلته بدون توقف عبر القنال الإنجليزي حتى « كوزنول » في جنوب غرب بريطانيا
 ممهدا بذلك الطريق لقرطاجة لتشارك في تجارة القصدير البريطاني مع تجار البحر الأبيض
 الآخرين الذين كانوا ينقلونه على الطريق البري عبر بلاد الغال (فرنسا). (١١)
 وليس هناك دليل آخرى مباشر يؤكد اتصال الفينيقيين ببريطانيا في ذلك الوقت لما يؤيد
 قصة « هيسلوكو ». ولو أن هناك عدداً من مخلفات أثرية ترجع للعصر الحديدي وجدت في
 كوزنول تشير الى وجود اتصالات ابرية . والتقود القرطاجية التي وجدت في بريطانيا تنسب
 الى فترة لاحقة ولا تعنى بالضرورة وجود اتصال مباشر بين البلدين . (١٢)
 أما بالنسبة لرحلة « هانو » فالوضع يختلف تماماً . فالخطوة الوحيدة الباقية لا يتعدى
 عصرها الزمني القرن العاشر الميلادي . وتعرضت للتحريف نتيجة النقل الكثير . ورغم ذلك
 فالقصة تعرضت لتعليق من قبل كثير من الكتاب المحدثين لطرافها والتفاصيل التي اشتملت
 عليها . وقد نقل معظم الكتاب القصة الاساسية ولكنهم اختلفوا فيما بينهم في تعريف وتحديد
 الأماكن التي ذكرها « هانو » وفي أقصى نقطة وصل اليها في رحلته . فالقصة تنقصها الدقة
 ومليئة بالتناقضات . وقد قبل في تفسير ذلك بأن « هانو » ربما جاء الى ذلك للتسوية ولتسليم
 أعداء « قرطاجة » وتخريبهم حتى لا يبعوا أثره وينافسوه في حيازات البلاد التي
 اكتشفوها . (١٣)

ويبقى نص القصة كالآتي :

- ١ - هذه هي قصة رحلة هانو (ملك القرطاجيين) الطويلة في البلاد الليبية التي تقع في
 وراء أعمدة هرقل (جبل طارف) والتي أهداها علي لوحة إلى معبد كروتوس : — (١٤)
- ٢ - قرر القرطاجيون ان يبحر هانو الى ما وراء أعمدة هرقل ويؤسس مدناً فينيقية
 ليبية . وفعلاً أنجز « هانو » في ٦٠ سفينة وفي رفقة ٣٠٠٠٠ رجل وامرأة مع كل
 الامدادات والمؤن والضروريات .
- ٣ - وبعد أن أنجزوا فيها وراء الأعمدة لمدة يومين قنا بأنشاء أول مدينة أطلقوا عليها اسم
 « ثيماتيريون Thymiatieron » في روبة وفي أسفلها كان يقع سهل فسيح .
- ٤ - ومن هناك أنجزوا غرباً حتى وصلوا « سولويس Soloeis » وهي عبارة عن
 روبة أوقفة جبلية ناتئة تغطيها الأشجار وعليها أنشأوا معبد « بوسيدون Poseidon » .
- ٥ - ثم واصلوا الرحلة شرقاً لمدة نصف يوم حتى وصلوا بعية قريبة من البحر بعطيا
 دغل من القصب الطويل نثنت عليها الأفيال وحيتوانات أخرى مفترسة .
- ٦ - وبعد مسيرة يوم واحد من هذه البحيرة أنشأوا مدناً ساحلية تحمل الأسماء الآتية :
 « كريكون تايغوس Krikon Teichos » ، « غيت غيت Gytte » ، « أكرأ
 Akra » ، « مليتا Melitta » ، « أراميس Arambys » .
- ٧ - ومن هناك واصلوا السير حتى وصلوا النهر الكبير « ليكوس Lixos » الذي
 ينبع من ليبيا وعلى جانيه يرعى الرعاة الذين يدعون « الليكبكت Livitae » ،
 قطعانهم . وقد قضينا فترة معهم وأصبحنا أصدقاء .

٧ — والى الداخل من موطن « الليكيت » يقطن الانثويون غير المصافين فى أرض تعج بالحيوانات المتوحشة وتغطى بها جبال عظيمة . ويقول هؤلاء بأن نهر « ليكوس » ينبع من هناك . وانه يعيش وسط هذه الجبال ساكنو الكهوف Troglodytes : قوم ذوو مظاهر غريبة ويتعرون أسرع من الخيول على حد زعم « الليكيت » .

٨ — وبمساعدة مترجمين من « الليكيت » أنبرنا جنوبا على طول الساحل الصحراوى لمدة يومين . ثم أنبرنا شرقا لمدة يوم واحد ووصلنا جزيرة عظيمها خمسة استاديا (حوالى ٥ كم) ونفع فى الطرف الآخر من الخليج وعليها أنشأنا مستوطنا أطلقنا عليه اسم « سيرن » Cerne « . التى نفع على حسب تقديرنا مقابل قرطاج مباشرة لأن المسافة من قرطاج إلى أعمدة هرقل ومن هناك إلى سيرن تبدو متساوية .

٩ — ومن هنا أنبرنا فى نهر كبير يسمى « شرتيس » Chretes « . حتى وصلنا بحيرة بداخلها ثلاث جزر أكبر مساحة من سيرن . وبعد مسيرة يوم كامل وصلنا إلى نهاية البحيرة . وتشرف عليها جبال عالية ترزخ باناس متوحشين يلبسون جلود حيوانات متوحشة وقد أخذوا يرمون بالحجارة وألقوا فى طردنا ومنعنا من الازساء على البر .

١٠ — ومن هناك وصلنا الانغار حتى وصلنا إلى نهر آخر واسع يعج بالاناسيح وفرس البحر . ثم قلنا عائدين إلى « سيرن » .

١١ — ومن « سيرن » أنبرنا جنوبا لمدة اثنى عشر يوما على مقربة من الساحل الذى كان يقطنه الانثويون الذين كانوا يهربون منا وكانوا يرطنون بلغة لم يستطع حتى « الليكيت » فهمها .

١٢ — وفى آخر يوم ألقينا مراسينا قرب جبال عالية تكسوها أشجار ذات أوراق مبرقشة وها راحة ذكية .

١٣ — وبعد أن أنبرنا حول هذه الجبال لمدة يومين وصلنا خليجا كبيرا يحف به على الجانبين سهل تعطيه باللبلى نيران صغيرة وكبيرة توجد على مسافات معينة .

١٤ — وبعد ان تزودنا بالماء من هنا أنبرنا لمدة خمسة أيام على طول الساحل حتى وصلنا خليجا أطلق عليه مترجمونا اسم « القرن الغربى » Horn of the West « . وكانت به جزيرة كبيرة بها بحيرة مألحة وبدخلها جزيرة اخرى صغيرة رسونا عليها . وأثناء النهار لم نفع أبصارنا الا على غابات مترامية الاضراف . وعند الليل رأينا نيرانا تشتعل وسمعنا أصواتا مبهمة تصحبها ذقات الطبول وعزف الناي . وقد تملكنا الخوف وغادرنا الجزيرة بعد أن نصحنا العرافون بذلك .

١٥ — ومن هنا أنبرنا بسرعة وطفنا حول ساحل مغمم براقة البخور العترة . وكانت انهار اخدم النارية تشق طريقها إلى البحر ولم تستطع الاقتراب من اليابسة لشدة الحرارة .

١٦ — وعلى عجل غادرنا ذلك المكان وأنبرنا لمدة أربعة أيام كنا خلالها نرى النيران وهى تتصاعد فى الليل بتوسطها غيب طويل يكاد يصل عنان السماء . وعند النهار عرفنا انه جبل عال يطلق عليه « عجلة الآفة » Chariot of the Gods « .

١٧ — ولقد وصلنا الانغار على طول ساحل ملتهب ملى بالخم لمدة ثلاثة أيام حتى

وصلنا خليجاً يسمى « القرن الجنوبي » Horn of the South » .

١٨ — وفي الطرف البعيد من هذا الخليج ظهرت جزيرة في وسطها بحيرة وبداخلها جزيرة نرج بالشوحشين كان أكثرهم اناثاً ذوات أجسام معطاة بالشعر عرفها المترجمون بالغوريلا . وقد قنا بمطاردتهم ولكننا لم نستطع القبض على الذكور الذين تسلفوا الصخور وفروا بعيدين وهم يرموننا بالحجارة . ولكننا استطعنا القبض على ثلاث اناث لأنهن لم يقاومن بشراسة . وقد قنا بقتلهن وأتينا بجلودهن الى فرطاجة . وثوقنا عن الاثار هنا لنفاذ موتنا .

الى هنا ينتهى نص القصة ...

هناك اتفاق عام حول تحديد ومطابقة المواضع التي ذكرها « هانو » لبيكوس الذي اتفق على أنه « وادى دراع Drau » « جنوبى الغرب » . أما « الليكيت » فيبدو أنهم « البرير » في حين ان « الاتيوبيين » زنج كما تسمى كلمة « اثيوبيا » في اللغة الارغينية . واستخدم « الليكيت » كترجمين يوضح الى حد ما معرفة هؤلاء بالاقليم الواقعة الى الجنوب من منطقهم . اما تحديد موقع « سيرن » التي أسسها « هانو » على مسافة ثلاثة أيام من سير « لبيكوس » فهو مهم جداً لأنها تمثل أبعد مستوطنة دائمة للتبليبيين على ساحل غرب أفريقيا ورد ذكره على لسان الكتاب القدماء . وقد افترضت ثلاثة تحديدات لموقع « سيرن » :

١ — جزيرة هيرن Herne مقابل الصحراء (الاسبانية سابقاً)

٢ — جزيرة ارغوين Arguin على مسافة ٢٠٠ ميل من جزيرة هيرن .

٣ — جزيرة غير محددة بدقة قرب دلتا نهر السنغال .

ويتفق معظم المنصفين المحدثين أن نهر « شريس » هو نهر السنغال . وقد استبعد ان يرجع « هانو » الى « هيرن » بعد ان وصل الى نهر السنغال ولذلك يرجع ان يكون موقع « سيرن » قرب مصب نهر السنغال . ولقد بعض التأييد هذا الرأي في وصف حركة النقل والتجارة في « سيرن » الذي ورد في كتابات « سكيلاكس » Scylax « الذي تكلم عن « مدينة كبيرة كان الفينيقيون يحرون اليها » . وهذا الوصف ينطبق على مدينة نهرية .. ولا يوجد نهر صالح للملاحة قرب جزيرتي « هيرن » و « ارغوين » وبالإضافة الى ذلك فان هذا الساحل الصحراوي القفر ليس بالمكان الذي نفاذ فيه مستوطنات لتدعيم علاقات تجارية مع منطقة أهلة بالسكان . ويعتقد ان ما معناه « هانو » هو أنه آخر في فرع من فروع نهر السنغال في اتجاه الشجع ورجع عن طريق آخر نحو مصبه ووجد النهر يجمع بالندسبح وأفراس البحر أما التوجه الخيل المكسو بالأشجار فقد يكون « الرأس الأخضر » Cape Verde » . وبمثل احتيج الكبير مصب نهر غامبيا .

ويدب الخلاف بين الكتاب عن آخر نقطة وصل اليها الرحالة هانو : بعضهم يقولون بأنه وصل الى « الكبيرون » أو حتى « جابون » في حين يحدد آخرون « سيراليون » كآخر نقطة

وصل إليها . وهذا الفريق الأخير يستند فيما ذهب إليه على نقطتين أساسيتين :
الأولى :

قلة الرياح في خليج غينيا والحرارة الشديدة والتيارات العكسية مما يجعل التحديف مرهقا وصعبا خاصة لمسافات طويلة .
والثانية :

التوافق الزمنية التي يذكرها « هانو » تتناقض مع رحلة طويلة كهذه .
أما الذين يرجحون الرحلة الطويلة (إلى الكيرون وجابون) فيستندون في حججهم على
الآتي :

ان جبل « الكيرون » وهو جبل بركاني مرتفع (١٣٣٧٠ قدم) بطابق حسب الوصف
« عجلة الافة » أكثر من جبل « كاكوتنجا » (٢٩١٠ قدم) في غينيا .^(٢٢)
أما عن النشاطات الفينيقية في استكشاف جزر المحيط الأطلسي فالأدلة عليها قليلة جدا .
ولكننا لا نستبعد ان يكون الفينيقيون على معرفة بجزر « ماديرا » و « كناري » لقربها من
الساحل الأفريقي الذي أنشأوا عليها مستوطنات تجارية لهم . والمرجع القديم الوحيد هو رواية
« ديودورس » عن سفينة ضلت طريقها في المحيط الأطلسي بسبب الرياح الشديدة ورسد
في جزيرة ذات مناخ طيب — ربما تكون « ماديرا » . ويذكر « ديودورس » أيضا كيف أن
الأتراكسكيين Etruscans حاولوا تأسيس مستوطن لهم هناك ولكن القرطاجيين
منعهم من ذلك .. ولكن لم يعثر على مستوطنات فينيقية في جزيرة « ماديرا » حتى
الآن .^(٢٣)

أما جزر « كناري » فهي قريبة جدا من الساحل الأفريقي لدرجة أننا لا نستبعد معرفة
الفينيقيين بها . وان كان بقاء حضارة قبيلة « الجوانش Guanche » كما هي في بدايتها
وتأخرها حتى القرن الخامس عشر الميلادي وبدون أي تغيير يدل على عدم احتكاكهم
بحضارات أجنبية . ومن الغرض أيضا ان الفينيقيين وصلوا جزر « الأزور » . فقد عثر فيها في
عام ١٧٤٩ على ثمان قطع نقد بونية تنتمي إلى القرنين الرابع والثالث م . ولكنها
فقدت .^(٢٤) ولكن يجب ألا نعلق أهمية كبرى على هذه العملات الا من الناحية
الاستكشافية ... فإذا كانت الجزر القريبة من الساحل الأفريقي مثل « ماديرا » و « كناري »
خالية من المستوطنات الفينيقية فمن المستبعد أن نبعث عن هذه المستوطنات في جزيرة بعيدة
مثل « الأزور » .

أما بالنسبة للاستكشافات البرية عبر الصحراء الكبرى فالإشارة الوحيدة لها هي ما ورد
في قصة كاتب يوناني يدعى « الثيوس » (حوالي عام ٢٠٠ ق.م) ذكر بأن قرطاجيا يدعى
« ماجر Mago » عبر الصحراء ثلاث مرات .. بدون ماء !^(٢٥) ورغم ما في القصة من
مبالغات فإنا يجب ان لا نستبعد افراءات ثروات أفريقيا لشجار الفينيقيين واحتمالات تجهيز
رحلات تجارية عبر الصحراء للحصول على هذه الثروات اما بأنفسهم أو بواسطة وسطاء مثل
الجرمانيين Garamates الذين كانوا يقطنون المنطقة الخلفية لمدينة طرابلس الحالية .
ويذكر « هيرودوت » أن خمسة ناسمونيين Nasamonies قد عبروا الصحراء ووصلوا

مدينة يسكنها زنوج أقزام . ونهر يجرى من الشرق الى الغرب وتكثر فيه الخناصير ^(٢٧) وربما يكون نهر النيجر . وكانت هناك طرق برية تربط بين قرطاجة ومصر .
ويعتبر الفينيقيون أول من أبغروا في المحيط الأطلسي . وأول من استوطنوا في جزيرة « سردينيا » وأسسوا بها خمسة مستوطنات وذلك حوالي عام ٨٠٠ ق.م. كما أنهم أول من استعانوا بالنجم القطبي North Star في الانبحار ليلا مستخدمين جداول المسافات .
وقد أطلق الاغريق « الذين تعلموا فن الملاحة من الفينيقيين » على هذا النجم اسم « النجم الفينيقي » وقد طور الفينيقيون سفنهم الشراعية حتى تتمكن من الانبحار بعيدا عن الساحل لمسافات طويلة في رحلاتهم التجارية .

ثالثا : إنشاء المستوطنات او المستعمرات :

يرجع تاسيس المستعمرات الى فترة الاستقلال الفينيقي . وربما دفع الغزو الاشوري الفينيقيين الى الاسراع في اقامة المستعمرات بالاجزاء الغربية من حوض البحر الأبيض المتوسط في محاولة لايجاد مرامي « أمنة وأسواق جديدة » . ويبدو ان هذه العملية بدأت حسب قول « بليسي ودودورس وسيلبولوس » في أواخر القرن الثاني عشر ق.م . على ان الفترة ما بين القرن العاشر والسابع ق.م هي التي شهدت اقامة معظم المستعمرات ^(٢٨) في حوض البحر الأبيض المتوسط ابتداء من سيبيا (جنوب تركيا) ومصر عبر اليونان وصقلية الى جنوب بلاد الغال (فرنسا) واسبانيا وشمال افريقيا وقبرص ومالطة وابرزا وسردينيا . وما زالت بعض هذه المستعمرات تحمل الاسماء السامية مثل : قادس في اسبانيا (بمعنى حائط) وبوتيكيا (المدينة القديمة) وقرطاجه (المدينة الجديدة) ومالطه (ربما سامية بمعنى مأوى) وترتبط اسطورة يونانية بمدينة (كورنث) باله من أصل « صوري » يدعى « ملكاوت Melkarth » « وان زائرا صوريا يدعى « كادموس Cadmus » (بمعنى القادم الجديد) أتى باحروف الالفبائية وأنشأ « طيبة » ثم واصل سيره للبحث عن اخته « أوروبا » التي اشتقت القارة اسمها منها . ^(٢٩)

وأشهر المستوطنات الغربية هي « قرطاجة » وقد تم تأسيسها حوالي عام ٨١٤ ق.م على يد مستوطنين من « صور » . وقد أخذت « قرطاجة » تقوى سياسيا وتجاريا حتى فرضت سيادتها على جزء كبير من شمال افريقيا وجنوبي اسبانيا . وأصبحت منافسا خطيرا للمدينة الناشئة آنذاك روما . وعندما أخذت « صور » تعاني سياسيا وتجاريا من التمرغل الاشوري الزاحف والتنافس الاغريقي المتزايد . أخذت قرطاجة دور الخامي للمستعمرات الفينيقية المجاورة لها وهكذا ازداد نفوذها حتى امتدت امبراطوريتها من ليبيا حتى اسبانيا .

وقد بلغ مجموع المستوطنات الفينيقية خمسين مستوطنة على أقل تقدير . وتتفاوت هذه المستوطنات من محطات تجارية صغيرة الى مدن كبيرة مثل قرطاجة وقادس وقرطاجة الجديدة في اسبانيا . ولما كان الغدوف من وراء تأسيس هذه المستعمرات تجاريا في المقام الأول فان هذه المستوطنات لم تشهد هجرات على مستوى كبير من الوضع الأم — فينيقيا .

بدأت تجارة القوافل في الشرق الأدنى — على حسب ما ورد في الانجيل — في وقت مبكر . وكانت تأتي بالعاج والرفيق والحبوب والماشية والذهب من أفريقيا الى آسيا وترجع محملة بالمعادن والمستحبات المعدنية والأقمشة الى مصر . وكانت البضائع الخفيفة الوزن تنقل برا على ظهور الدواب بينما كانت الطرق البحرية الساحلية والنهرية تستخدم — كلما سحت الفرصة — لنقل البضائع الثقيلة مثل الخشب .^(٣٠)

وتوضح النقوش الآشورية سفنا نهرية صغيرة يقودها فينيقيون وهي تفرغ حمولتها من الخشب في بلاد ما بين النهرين . ولكننا لا ندري كيف وصلت السفن الى هناك وربما تكون الأخشاب قد انقلبت برا من الأجزاء الدنيا من نهر العاصي أو عن طريق البحر الى « طرسوس » (في تركيا) ومنها الى بلاد ما بين النهرين عبر الطريق الرئيسي من آسيا الصغرى .

ويرد ذكر التجار الكنعانيين من « بيلوس » في الكتابات المصرية ابتداء من المملكة القديمة فصاعدا . وليس من المستبعد ان تكون الملاحة والتجارة والتبادل الفكري قد اسنمر بين المنطقتين بدون انقطاع حتى استقلال فينقيا . وقد كانت الامبراطوريات المصرية والآشورية تشجعان هذه التجارة لما يعود عليهما من فوائد اقتصادية ، وما من شك في أن المدن الساحلية قد تركت لغارس هذه التجارة بحرية وبدون تدخل من هاتين القوتين . ولكن المغامرات البحرية الفينيقية الطويلة لم تبدأ إلا بعد حوالي ١٢٠٠ ق.م . حين انهزم المينيوني ولما يسينون الذين كانوا يسيطرون على تجارة الحوض الشرقي للبحر الأبيض المتوسط . ومنذ فترة كانت المدن الساحلية الفينيقية تحبب الفرصة لتتطرق بتجاريتها الناشئة الى أفاق جديدة نحو الغرب : فكان بحر ايجه المهرومون كانت غم صلات تجارية قوية نحو إيطاليا وصقلية وجزر البحر الأيوني كما ان أخبار ارسابات المعادن الغنية في اسبانيا (حديد وقصدير) وبريتاني وبريطانيا (قصدير) كانت شائعة في ذلك الوقت . وقد أعانهم في اقامة الصلات التجارية الجديدة التجار المايستين الذين استوطنوا في المدن الفينيقية .^(٣١)

ومن المحتمل ان الفجرات الفينيقية الاولى كانت لغرض التجارة أكثر منها للاستيطان والاستعمار . ورغم ان التوغل العبري Hebrews قد أدى الى ازدهار سكاني في هذه المنطقة الساحلية ، مما أدى الى هجرة بعض السكان الاصليين من الكنعانيين شمالا نحو المدن الفينيقية فمن المستبعد أن تكون هذه الزيادة السكانية قد جاءت نتيجة لاستيطان المستعمرات الكثيرة التي انشئت في البداية كما تصورها المصادر القديمة . واذا استثنينا بعض المدن الرئيسية مثل « قرطاجه » و « يوتيكا » Utica « و « قادس » فمن المرجح أن معظم تلك المستعمرات الاولى ، خاصة في الغرب ، كانت عبارة عن مرافئ على مسافات معينة من بعضها البعض حيث تلقى السفن مراسيها لفترة لتتروود بالتون ثم تعاود المسير . وعدم وجود بقايا أثرية خاصة بهذه الفترة في هذه المواضع قد يزيد هذا الكلام .

في مقدمة ما أسهم به الفينيقيون حضاريا ابتكارهم لنظام الحروف الأبجدية الخالٍ وهم بهذا الابتكار قد أسدوا خدمة جليلة للبشرية جمعاء . ولا يقل هذا الابتكار عن اكتشاف الزراعة أو الثورة الصناعية من حيث أهميته . لقد كان الإنسان في البداية يستخدم صوراً ليعبر عن آرائه للآخرين . وطريقة استخدام الصور طريقة مرهقة وبطيئة نشأت مسئلة في عدة أماكن ثم تطورت إلى نوع من الكتابة المقطعية والتي تطورت بدورها إلى الكتابة الأبجدية التي ظهرت في مصر لأول مرة . ولكن الأبجدية المصرية (هيروغليفية) كانت رموزاً . وكانت هذه الرموز أربعة وعشرين رمزا كل منها عبارة عن صورة من البيئة المحلية . وقد ظهرت الكتابة الصورية أيضا في سومر وبابل . وهي ما يعرف بالحروف المسارية وكان على المرء إذا أراد أن يعبر عن نفسه أن يتقن استخدام ٥٦٠ رمزا يمثل كل رمز منها مقطعا .^(١٤)

ولما كانت هذه الوسائل التي استخدمها الإنسان في الكتابة بطيئة ومرهقة ولم تكن عميلة في التعاملات التجارية . فقد ابتكر الفينيقيون نظام الأبجدية الحالية . ونحن لا نعرف على وجه الدقة كيف تم ذلك الابتكار وكل ما نعرفه أن التجار الساميين الذين كانوا يتاجرون مع مصر في شبه جزيرة سيناء استطاعوا تطويع الرموز المصرية . ووصل هذا التطوير إلى الفينيقيين الذين ادخلوا عليه الكثير من التعديلات في القرن الثالث عشر ق.م حتى صار نظاما أبجديا يتكون من اثنين وعشرين حرفا بعد حذف الحروف الميتة .^(١٥)

واقبس الفينيقيون من المصريين أيضا طريقة الكتابة ورق البردي بخير مصنوع من عصارات نباتية . وكانت هذه الطريقة أجدى وأيسر من طريقة البابليين الذين كانوا يجمعون لوحات من الطين اللين حتى تجف بعد الكتابة وتصبح قوية .

ويبدو أن الفينيقيين هم أول من نظم حروف الكتابة ورتبها ترتيبا ثابتا وأطلقوا على الحرف الأول « ألف Aleph » « ثور » والغائي « بيت beth » « منزل أو بيت » وهكذا . واقبس الآغريق الحروف الفينيقية وقلدوا أصواتها وقالوا « ألفا Alpha » « و » بيتا Beta » . وقد اشتق تعبير أبجدية أو Alphabet من الحروف الأولى وفق تنظيم الفينيقيين .

وهكذا نجد أن نظام الأبجدية أسهم فيبقى لولاه لاخذت الحضارة منحى مختلفا ولما قلعت البشرية هذا الشوط العظيم في مجال العلوم والثقافة .

ثانياً : التفوق الملاحي والكشوفات الجغرافية : (انظر الخريطة رقم ٢)

اتجه الفينيقيون إلى البحر لعوامل عديدة منها أن فينيقيا كانت مطوقة بدول قوية من الشمال (الحثيون) ومن الشرق (الآراميون) ومن الجنوب (الفلسطينيين) وكان الطريق الوحيد المفتوح أمامهم هو الاتجاه نحو الغرب إلى البحر . كما كانت جبال لبنان العالية التي كانت تحمي المدن الساحلية من هجمات الآراميين كانت أيضا حاجزا يعزل بين فينيقيا وبين

الصحراء الكبرى ونيجيريا وربما المناطق الجنوبية من غرب أفريقيا . فقد كانت الصحراء الكبرى آنذاك أقل حفاة وكانت هناك طرق قوافل بين مصر وموريتانيا وبين ساحل البحر الأبيض وبين لبحيريا . ومن المرجح ان الفينيقيين هم الذين أنوا بمتجذات هذه الرقعة الكبيرة من الذهب والعاج والحياوانات البرية والمستأنسة الى المناطق المتحضرة حول البحر الأبيض المتوسط وربما كان القرطاجيون يستخدمون طريقا داخليا الى مصر يمر عبر واحة سيوه . ويؤيد « هيرودوت » وجود تجارة ساحلية للفينيقيين مع سكان الساحل العربي لشمال أفريقيا تمارس فيها أسلوب المقايضة . وترد قصة عرضية في كتاب « رحلات Periplus » اغريقي عن تجارة قائمة بين الاثيوبيين والتجار الفينيقيين في ساحل غرب أفريقيا الممتد حتى مدينة « سيرن Cerne »^(٣٦) وهناك بقايا أثرية فينيقية عثر عليها حديثا في المغرب مما يدل على وجود صلات تجارية مع هذه المنطقة .

ويتعبر الفينيقيون أول من وضعوا قوانين للمعاملات التجارية البحرية وقد عرفت باسم Rhodian Law نسبة الى جزيرة رودس . وينص القانون على أن أية خسارة يكسبها قبطان بحري نتيجة محاولاته لانفاذ سميته اذا تعرضت لتخطر (غرق مثلا) لا بد ان يتقاسمها جميع أصحاب البضائع الذين هم بضائع في هذه السفينة بنسب معينة . ومثلا اذا اضطر قبطان سفينة لرمي بضاعة أحد التجار في البحر في سبيل انقاذ سميته من غرق محدد فإن خسارة هذا التاجر يتحملها كل التجار الذين هم بضاعة في السفينة وصاحب السفينة . وكان هذا القانون مصبغا في كل أنحاء حوض البحر الأبيض المتوسط ويعرف في القانون البحري الحديث بـ Gross average

العملة الفينيقية .

مع أن استخدام العملة في التجارة بدأ في بلاد الاغريق أثناء القرن السابع ق.م . وأصبح شائع في بداية القرن السادس ق.م . الا ان الفينيقيين لم يهتموا بفكرة استخدام العملة مبكرا رغم ميولهم وزعماتهم التجارية . فضيحة تجارهم وتاريخها وعاداتهم التجارية القديمة واتصالاتهم الكثيرة واحتكاكهم مع أقوام بدائية في معاملاتهم التجارية اكسبهم مهارة في استخدام أسلوب المقايضة . وحتى عندما كان الفينيقيون خاضعين لسيطرة الفرس لم يقوموا بأية محاولة لصك عملة لانهم لم يروا فائدة تخرج من ذلك ولان تجارهم مع بلاد الاغريق كانت قد اصبحت تماما .

وفي حوالي منتصف القرن الخامس ق.م. ضربت أول عملة فينيقية في « صور » ونعينا « صيدا » و « ارادوس » و « بييلوس » في أواخر القرن الخامس أو أوائل القرن الرابع ق.م . وربما يدل على هذا الضعف السياسي الذي أصاب الامبراطورية الفارسية وانبعاث التجارة الفينيقية مع بلاد الاغريق . أما باقي المدن فلم تضرب عملتها حتى الفترة الهلنستية . وقد كانت هذه النقود الفينيقية مصنوعة من الفضة أو البرونز . أما العملة الذهبية السائدة آنذاك فكانت الدارية Daric نسبة الى دارة الفارسي .^(٣٧)

أما المدن الفينيقية في الغرب فقد بدأت سك عملاتها في وقت لاحق . وكانت أول نقود « قرطاجية » تتكون من ذهب على الطريقة الفينيقية ومن دراخما فضبة على مقياس عملة يونيكيا . وقد ضربت هذه النقود في صقلية في نهاية القرن الخامس ق.م عندما كانت « قرطاجية » في حاجة الى نقود لتدفع المرتبات لجنودها . وقد سكّت هذه المجموعة من النقود على الطريقة الفينيقية من ذهب وبرونز والكتروم (مزيج طبيعي من ذهب وفضة) . اما العملات الفضية فقد كانت نادرة حتى أواخر القرن الخامس ق.م حين استولى هملكار Hamilcar على مناجم الفضة الاسبانية . ومنذ نهاية القرن الثالث ق.م سادت النقود البرونزية في « قرطاجية » وانتشرت الى اماكن عديدة حتى بريطانيا والأزور .^(٢٨)

أما المدن الفينيقية الاخرى في الغرب التي كانت تمتلك عملات خاصة بها وذلك قبل القرن الثالث ق.م فتتمثل في « صقلية » التي بدأت في سك عملتها في القرن الخامس ق.م . وقادس و « أيبزا » (القرن الثالث ق.م) . وكانت « قرطاجية » تملك دار سك في « قرطاجية الجديدة » في اسبانيا وكانت معظم عملاتها من الفضة .

خامسا : النبوغ الصناعي عند الفينيقين :

أوضح الأنجل وكذلك الحفريات الاثرية أن الكنعانيين كانوا . مثل بقية الشعوب السامية يعترفون الزراعة والرعي . ومن المتوقع ان هؤلاء الكنعانيين أخذوا صيد الأسماك حرفة عندما استقروا بجانب البحر . كما أن كثرة الأخشاب الصالحة لعمل السفن في الغابات الجاورة كانت من الاسباب التي أدت الى قيام تجارة بين « بيلوس » ومصر في الاخشاب . وقد عمل الفينيقيون على تطوير صناعات محلية قوامها المواد الخام الخشبية ثم المواد المسنودة . ومن الصناعات التي نبغ فيها الفينيقيون : —

١ — الصناعات الخشبية والحجرية :

كان لوفرة أشجار الأرز في لبنان دور في حذق الفينيقين صناعة الأدوات المصنوعة من الخشب . وقد كان الخشب يستخدم بكثرة في بناء المنازل خاصة في الزخارف الداخلية . وكانوا أيضا يبنون منازلهم من الحجارة والأجر والطين .. ولكن المنازل التي تتكون من عدة طوابق كانت تبنى عادة من الأخشاب . وكثير من التوابيت الخشبية التي وجدت في مصر كانت من عمل الفينيقين .^(٢٩) وكانت الاثاثات الخشبية تطعم بالعاج وكذلك بعض الفخار الخشبية ، ولكن معظم هذه الأعمال قد اندثرت مع الزمن . وقد برع الفينيقيون في الأعمال الحجرية كبناء المنازل والمعابد والتوابيت وقد كان لوجود

الأحجار لأعمال البناء أهمية كبرى في اختيار مواقع مستعمراتهم الجديدة . وكانت أكثر الاحجار استعمالا هي الجيرية والرميلة لسهولة نحتها . ولكن أحجام القوالب الحجرية كانت غير متناسقة ويوقف الحجم على العرض الذي سيستخدم من أجله : ففى بناء الحيطان الحاجزة كانوا يستخدمون قوالب كبيرة غير منحوتة بدقة فى حين أن بناء المنازل كان يتطلب أحجاما أصغر منحوتة بدقة وعناية مع استخدام « مونه » من الجير أحيانا .^(١٠)

٢ — صناعة النسيج والصباغة :

لا نعرف على وجه الدقة والتحديد كيف نشأت صناعة النسيج عند الفينيقيين ولا عن الصناعة نفسها لانه لم يعثر على بقايا أقشة فينيقية فى الاماكن الأثرية الفينيقية ولا حتى من مصر التى كانت تزخر بأنواع من الأقشة المختلفة . ولكننا نرى فى نقوش المقابر المصرية آسوبيين من عناصر سامية يلبسون ثيابا صوفية واسعة وذات ألوان كثيرة وبعضها ملفوفة حول الجسم بعناية . وفى « بوابة البلوات » التى أقامها « شلمنصر الثالث » قرب مدينة « نمرود » فى العراق لتسجيل حملاته نرى الفينيقيين وهم يلبسون ثيابا طويلة وملفوفة حول أجسامهم مع قلنسوات . وبما أن الصور المنحوتة توضح الزى العادى للفينيقيين كالذى نراه فى النقوش المصرية فليس بعيد أن تكون تلك الصور تمثل الفينيقيين . ويبدو من هذه النقوش ان الفينيقيين كانوا يفضلون الزى المتفن الصنع ذا الالوان الكثيرة والمطرزة . وحتى فى « قرطاجة » احتفظ الفينيقيون وخاصة الرجال ، بزيمهم الشرقى وكان تمسكهم بزيمهم مثار تعليق الرومان والاغريق . وكان لبهم بسطا فى شكله ومنظره ، أما النساء فقد اُثرن الازياء الاغريقية .^(١١)

هذا وقد عثر على أدوات الغزل والنسيج فى بعض المقابر . كما أن هناك بعض اشارات عابرة لصناعة النسيج فى بعض كتابات الكتاب القدماء مثل « دبودورس » ويبدو من هذه الاشارات ان هذه الصناعة كانت تتم فى المنازل .

أما من الصباغة فقد كان منتشرًا فى أرجاء الممالك الفينيقية ، وكانت « صور » و « صيدا » من أهم مراكز هذه الصناعة . ويبدو انها كانت محتكرة عند الفينيقيين الشرقيين ولكن بقايا اصداق المريق Murex وأوعية الصباغة التى عثرت فى المغرب تدل على أن هذه المهنة كانت تمارس هنا أيضا . كما فى « دار عسافى Essafi » قرب « رأس بون » فى تونس التى كانت مركزا لصناعة الأصباغ وصيد الاسماك . ويمكن أن نعتبر الفينيقيين أول من استخدموا صبغة المريق فى صبغ الأقشة . والطريقة كالتى : عندما يموت هذا الرخوى ويتغفن يفرز سائلا أصفر اللون يضاف على القماش درجات من اللون تتراوح من الاحمر الوردى الى البنفسجى الغامق ويزداد اللون غمقا عند التعرض لأشعة الشمس . وطريقة عمل الصبغة هي أن يكسر الصدف وتستخرج المادة الداخلية وترمى فى الأوعية حيث تتحول الى

سائل . ولأن عملية استخراج الصبغة وعملية صبغ الأقمشة كانت مكلفة فقد كانت الأقمشة الأرجوانية غالبية لا يفتتها الا الأثرياء .

٣ — الأعمال المعدنية :

استخدم الحديد في منطقة ساحل البحر الأبيض المتوسط الشرقي حوالى عام ١٢٠٠ ق.م. عندما كانت « فينقيا » تنقطع للاستقلال . ولا يستبعد أن يكون الفينيقيون قد عرفوا الحديد لأن الفلسطينيين كانوا يستخدمونه أيضا . ولكن الفينيقيين اشتهروا بمهارتهم في الأعمال النحاسية والبرونزية والمعادن النفيسة حيث كانوا يستجلبون النحاس من قبرص وبعض البلاد الآسيوية . والذهب والفضة من أثيوبيا وربما من آسيا الصغرى . وقد كان الطلب على هذه المعادن وكذلك القصدير كبيرا ولذلك سعى الفينيقيون للحصول عليها ابنا كانت متوفرة . ورغم انه لم يعثر على بقايا معامل المعادن للآن في المواضيع الا انه ربما يعثر عليها في المستقبل . وذلك لأن ذكر مصاهر الحديد والنحاس يرد في نقوش العمران الجنائزية كما تظهر عليها صور المطارق والمقابض وأدوات أخرى مماثلة كما ان هناك اشارات في كثير من الكتب القديمة على مهارة هؤلاء العمال الفينيقيين في هذا المجال .^(١٢) وكذلك وجدت بعض الأدوات المعدنية ومن أبرزها — من الناحية الفنية والمهارية — تلك الاواني المعدنية المزخرفة والتي تنسب للقرن السابع ق.م والتي عثر عليها في « قبرص » و « إتروريا » في إيطاليا و « نمرود » و « اليونان » . وقد امتاز الفينيقيون في صنع وتصميم أدوات الزينة المعدنية خاصة من الفضة والذهب . وبعد أنواعا من العقود والأقراط والفلائد والأساور ليس في « فينقيا » و « قبرص » فحسب بل في « قرطاجنة » . و « سردينيا » . اما أدوات الزينة الذهبية التي وجدت في اسبانيا فقد ظهر بأنها من صنع فنيين محليين تأثروا بالفينيقيين .^(١٣) كما وجدت الاواني والأدوات الفخارية وباعداد كبيرة في كثير من الأماكن الفينيقية .

صناعة الزجاج وصلته :

عرف الفينيقيون صناعة الزجاج منذ وقت مبكر وبرعوا فيها لدرجة ان « بليني » كان يعتقد بأن الزجاج قد تم اختراعه في « فينقيا » . واذا كان ذلك صحيحا فلا بد ان نشير الى ما يسمى بـ *Gore-made glass* أو الزجاج الذي كان يصنع عن طريق النفخ والذي اخترع حوالى الألف الاولى قبل الميلاد . وقد وجدت انواع من المصنوعات الزجاجية في المواقع الفينيقية مثل الفلائد والقائم والحلعل ويعتقد بأنها فينيقية الصنع .^(١٤) وقد عرفت صناعة الزجاج أيضا في بلاد الرافدين ومصر . ولكن زجاج هذين البلدين كان يختلف من حيث الشكل والتفاصيل عن الزجاج الذي كان معروفا ومتداولاً في منطقة

البحر الأبيض المتوسط . وحتى في مصر فإن هذا النوع من الزجاج لم يكن معروفا في الألف الأولى ق.م إلا في منطقة الدلتا ولذلك يمكن أن ينسب هذا الزجاج إلى الساحل السوري أي « فينيقيا » أو جزيرة « رودس » . وفي الوقت الحاضر لا نستطيع أن نفصل في ذلك .. وإلى أن يثبت في هذا الموضوع فهناك قول « بليسي » المشار إليه بأن الزجاج من اختراع الفينيقيين أما الزجاج البارد Cold-cut glass فقد كان من اختصاص الآشوريين الذين كانوا يستخدمونه في قصورهم منذ القرن الثامن ق.م وشاع استخدامه عند الفرس بعد ذلك بثلاثة قرون . ولكن هناك اختلافا في الشكل . وبعض الزجاج الذي وجد في إسبانيا يعمل الشكل الفينيقي الخالص الذي نجده في الأدوات المعدنية والحرفية .

الملاحم الأخرى للحضارة الفينيقية :

على الرغم من أن الحضارة الفينيقية هي أساس حضارة سامية إلا أن لها ملامح مميزة تظهر واضحة في دينهم وفنهم وأدبهم .

الدين :

وعمل الفينيقيون الساحل الشرقي للبحر الأبيض المتوسط أثناء العصر البرونزي عندما كانت الزراعة تمثل المصدر الرئيسي للمعيشة . وكان دينهم يتعلق أساسا بالقرى الطبيعية وعملياتها الغامضة التي كانت تمنحهم النبات والحيوان لأطعمتهم . وكانت آلهتهم آلهة انخساب لها ارتباط بالأشجار والحقول والأنهار والينابيع وتم عبادتهم أحيانا في معابد ولكن في الغالب الأعم فوق التلال . وكانت كل مدينة تطلق على رئيس آلهتها اسم ب « بعل » (بمعنى مالك أو سيد) وعلى رفيقته اسم « بعله » (بمعنى عشيقة) وكانت عبادتهما تتم سويا . وقد اكتسب « ملكارت » « بعل » مدينة « صور » شعبية كبيرة عندما أخذت المدينة تتفوق وتزدهر . أما رئيس آلهة مدينة « أوغاريت Ugarit » « فكان يعرف بـ « إل El » ورفيقته باسم « آلات Elat » ، وكان له ابن يدعى « عليان Aliyan » وابنة باسم « عشتارت Ashtart » .

أما طقوس عبادة الانخساب فكانت تتضمن البكاء على موت آلهة النبات في الصيف والدعاء له لكي يتغلب على عدوه (آلهة الموت Mot) . ثم الاحتفال ابتهاجا بعودة الحياة للآلهة في فصل الربيع . أما عبادة الانخساب لـ « تموز » (ادونيس) و « عشتار » التي كانت تأخذ « بيبيلوس » مركزا لها . فقد انتشرت إلى « قبرص » و « اليونان » والعالم الروماني . و « عشتار » هي بعلة مدينة « بيبيلوس » . ومن الطقوس الأخرى التي كانت تمارس حول معبد « عشتار » ما يسمى بالدعارة المقدسة وكذلك قتل الأطفال حديثي الولادة . (١١)

يعكس الفن الفينيقي نفس تلك السمات التي تميز بها في المرحلة الأخيرة من العصر البرونزي في كونه مؤلفاً من عناصر مستمدة من مصادر مختلفة وفي محاولته للتوفيق بين المعتقدات (الدينية) المتعارضة. وكما تحمل الفنون الفينيقية طابع الانقراض التي كانت تتاجر معها فإنها أيضاً تركت أثرها وطابعها على فنون هذه البلاد. ومثلاً نجد النفوذ المصري ظاهراً في النقوش العاجية والمنحوتات في حين أن الأوعية المعدنية المنقوشة تعكس نفوذ بلاد ما بين النهرين والأناضول. ولكن هذا لا يعني أن الفينيقيين كانوا مقلدين فقط، فقد تجلت عبقريتهم وإصالتهم في الأسلوب الجديد والإضافات التي حدثت بها قرائع الحرفيين وكانت نتيجة تلك الأعمال الفنية الرائعة التي تميزوا بها. فقد برع الحرفيون الفينيقيون في أعمال البرونز والنحاس ووصلوا بصناعة الزجاج والعاج إلى آفاق جديدة ومستوى رفيع. أما في الأعمال المعدنية فلم يكن لهم نظير، وفوق هذا فقد اشتهروا بأنهم أول من قاموا بزخرفة أواني الزينة (الزهربات) المعدنية بالزهور الصناعية. وقد تأثر الفن الاغريقي بالفن الفينيقي. ولقد برع الفينيقيون في نحت العاج الذي كان شائعاً في «فينيقيا» وسوريا وكذلك في «قرطاجة» وقد كان الفينيقيون يستوردون من الفيل من الهند (وبلاد بنت) عبر البحر الأحمر بعد أن نفذ المورد السوري، في حين أن القرطاجيين كانوا يستوردون ما يحتاجون إليه من العاج من الأقاليم الجنوبية ومن المزارع الخاصة لتربية الأفيال التي أنشئت في شمال أفريقيا (لغرض تمويل الجيش بالأفيال للأغراض الحربية). وكان العاج المنقوش يستخدم في زخرفة أو تطعيم الأثاثات المنزلية وعمل الخنايا والأدوات الصغيرة مثل الأمشاط والصدادين الصغيرة وأدوات الزينة ودبابيس الشعر. وكانت التجارة في هذه الأدوات العاجية رائجة جداً. أما الأدوات المصنوعة من العظم كانت عادة تستخدم في تزيين الصناديق الخشبية وأدوات الزينة مثل أوعية المرهم وكذلك للثأيم والاختام.

وقد حفظ الفينيقيون التراث الفني لعصر البرونز من الضياع في العصور المظلمة ونقلوها للغرب، ونحن مدبتون لهم بمعرفتنا الحالية عن انتاجات المراكز الحضارية التي سادت في تلك الفترة. وبواسطتهم انتشرت الأشكال الحيوانية *Moties* الإيرانية والأسكانية في إقليم البحر الأبيض المتوسط وأصبحت تقلد بواسطة اليونانيين والإيطاليين. أما عن أدبهم فقد سبقت الإشارة إلى اختراعهم للحروف الأبجدية. أما باقي أعمالهم الأدبية فقد اندثرت إلا النذر اليسير منها.

ولأن الزراعة كانت تمثل — خاصة في قرطاجة — قطاعا اقتصاديا مهما عند الفينيقيين فقد اهتم الفينيقيون بالرى وتمرسوا فى هذا الفن قبل ١٥٠٠ ق.م وربما ساعد هؤلاء فى انتشار فن الرى حول الشواطىء الجنوبية للبحر الابيض المتوسط وذلك من خلال رحلاتهم التجارية ومستعمراتهم التى اقيمت هناك .

الخلاصة :

الفيينيقيون أمة بحرية عاشت على ساحل البحر الابيض المتوسط الشرقى منذ القرن الرابع عشر ق.م وقد عرفت بالكنعانيين واطلق اليونانيون على الكنعانيين اسم الفينيقيين من Phoenix الذى يدل على اللون الاحمر .

وقد دفعت الظروف الجغرافية الفينيقيين الى الاتجاه نحو البحر الابيض المتوسط حيث نشأت المدن الفينيقية على ساحله وكانت كل مدينة بمثابة دولة وكانت هذه المدن تتحد احيانا فيما بينها مكونة اتحادا فيدراليا تحت زعامة احدى المدن القوية . وفى فترة استقلال فينيقيا من النفوذ الاجنبى توسعت افريقيا وانشأت مستعمرات عديدة فى حوض البحر الابيض منها « قرطاجة » .

ولقد أسهم الفينيقيون اسهامات حضارية كبيرة ، أهمها على الاطلاق ابتكار نظام الابجدية السائد الآن ، ونبوغهم فى فنون الملاحة البحرية حيث أبحروا فى المحيط الاطلسي ، واستعانوا بالنجم القطبي فى اسفارهم ليلا وداروا حول افريقيا وعرفوا ساحلها الغربى . كما اشتهروا بمهارتهم التجارية حيث وضعوا قانونا للمعاملات التجارية كما تفوقوا فى بعض الصناعات كصناعة السفن وصناعة الزجاج والاصباغ والاقنعة وصناعة ادوات الزينة العاجية والذهبية .